

احتياجات خاصة

بعد تخرجها في كلية الطب عام 1896 تخصصت د. «ماريا مونتييسوري» في جراحات النساء والأطفال ثم بدأت تدرس الطب النفسي. خلال زياراتها المتكررة لـ «مستشفى المجانين» لاحظت أن الأطفال يمتجزون في نفس عنابر البالغين وأن سبب وجود هؤلاء الأطفال في المصححة هو عدم قدرتهم على العمل أو الدراسة أو مجرد البقاء في المنزل، لأن لديهم إعاقات جسدية أو عقلية تمنعهم من خدمة أنفسهم ومن الإنتاج. بدأت د. «مونتييسوري» في مراقبة هؤلاء الأطفال ولاحظت انشغالهم بأبسط المتغيرات في البيئة من حولهم، وإن كانت قطعة خبز قد سقطت من أحدهم. تساءلت إن كان هؤلاء الأطفال ضحايا الإهمال والعزلة وبدأت تدرس طرق تحفيزهم وتنشيط قدراتهم العقلية والحسية.

تأثرت د. «ماريا مونتييسوري» بثلاثة أطباء، «سيجوين» الذي عالج الأطفال ذوي الإعاقات العقلية والجسدية، و«إيتار» الذي تخصص في علاج الصم والبكم، و«بريرا» الذي تخصص في علاج الأطفال الذين فقدوا القدرة على الإبصار والسمع. وكان «بريرا» من الرواد في مجال تنمية القدرات والمهارات من خلال الحواس، وخاصة حاسة اللمس. تعلمت د. «مونتييسوري»

الآتي عن الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة بغض النظر عن طبيعة إعاقتهم:

- 1 - أغلب الأطفال لديهم طاقة غير مستغلة وقدرات مهملة يمكن تأهيلهم من خلالها.
- 2 - يجب التركيز على تنمية المهارات الحياتية حتى يستطيع هذا الطفل خدمة نفسه وقضاء احتياجاته الشخصية دون الاعتماد على أحد.
- 3 - الاحترام والحب عوامل أساسية في استجابة الطفل وتحسن حالته.

باستخدام الحواس والتدريب استطاع العديد من الأطفال الذين باشرتهم د. «ماريا مونتيسوري» تعلم الطهو والنظافة الشخصية وترتيب وتنظيف المنزل، كما تعلم آخرون حرفاً يدوية بسيطة، واستطاع بعضهم الحصول على فرص للتدريب والعمل. من خلال أسلوبها العلمي استطاعت اختراق الأنماط التقليدية للتعامل مع هؤلاء الأطفال، وبالمثابرة والاستكشاف والتجربة أثبتت د. «مونتيسوري» أن ذوي الإعاقات يمكنهم تعلم القراءة والكتابة بصرف النظر عن العمر.

تستخدم أنشطة المونتيسوري اليوم في مساعدة العديد من الأطفال على التركيز وعلى استخدام عضلات اليد والأصابع وعلى التواصل الاجتماعي. كما تستخدم أدوات المونتيسوري في مساعدة الأطفال الذين يواجهون صعوبات في التعلم بصفة عامة، أو صعوبات في التأقلم مع طرق التعليم التقليدية. إذا كان لديكم طفل «مختلف» يمكنك مساعدته من خلال نهج المونتيسوري عن طريق مراقبة الفترات الحساسة ومراعاة اهتماماته وشغفه، لأن هذا هو مدخله للنمو والتعليم، وعلى هذا الأساس قدموا له الأنشطة المناسبة ودعوه يحاول حتى يطور من نفسه.

للأسف تحولت الطفولة في وقتنا هذا إلى سباق بين الأطفال، ومنافسة بين الأهل، وتجارة بين الحضانات والمدارس، ضغوط نفسية وضعتها المؤسسات التعليمية على الأهل ونقلها الأهل إلى أبنائهم. ليس من الصواب في شيء أن تجري المدارس مقابلة شخصية للطفل وبعدها تقرر قبوله أو عدمه. ليس من حق المدرسة مطالبة الأهل بنقل الطفل إلى مدرسة أخرى لأنه «متأخر» عن زملائه. لقد ضاعت الطفولة الطبيعية وسط التوقعات وطلبات التقديم في المدارس والوعود بتحويل الطفل إلى قائد ذكي متفوق مهذب متدين خارق!

تنمية الحواس في نهج المونتيسوري

تقول د. «ماريا مونتيسوري» إن الطفل يدرك العالم من حوله من خلال حواسه، وأن البيئة الصديقة للطفل هي تلك البيئة التي تشجع محاولاته للاستكشاف بدلاً من المنع والرفض. تقول أيضاً إن المعلومات التي يجمعها الطفل من خلال حواسه في سنواته الثلاث الأولى تكون بيانات غير مرتبة أو مصنفة ودور التعليم في الطفولة المبكرة، من ثلاث إلى ست سنوات، هو مساعدة الطفل على استخدام حواسه من خلال أنشطة محددة لتنمية قدراته وتوسيع مداركه بأسلوب ممنهج.

قسمت ماريا مونتيسوري الحواس إلى 9 حواس:

- البصر
- السمع
- الشم
- التذوق
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه اللمس
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه درجة الحرارة
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه الضغط والوزن
- الإدراك العضلي
- الإدراك من خلال التجسم (حاسة الكفيف)

ينفرد نهج المونتيسوري بأدوات تم تصميمها خصيصاً لتنقيح الحواس ولتنمية الإدراك من خلالها. أهم ما يميز أدوات تنمية الحواس:

- الأدوات جميعها مصممة خصيصاً لتلائم الأيدي والأصابع الصغيرة.
- جميع الأدوات مصنوعة من خامات طبيعية وشكلها منسق ومبهج.
- جميع الأدوات تقدم أمثلة وتدريبات ملموسة سهلة الهضم لمفاهيم مجردة أو نظرية مثل الهندسة والجبر والرياضيات بصفة عامة.
- كل نشاط يعتمد على «فصل الخواص». يتعلم الطفل تمييز الأطوال والأقطار (قطر

- الدائرة) والوزن والعرض ودرجات الصوت والحرارة وتدرج الملمس الناعم وغيرها من الخواص من خلال التركيز على كل خاصية منفردة.
- كل الأدوات تتدرج في مستوى الصعوبة من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً حتى تساعد الطفل على الاستيعاب.
 - أغلب الأنشطة تسمح للطفل بإدراك الخطأ وإصلاحه والتعلم منه بدون تدخل شخص بالغ.
 - جميع الخواص متعارف عليها عالمياً مثل الألوان ووحدات قياس الوزن والطول والحجم وهكذا.
 - لكل أداة هدف تعليمي محدد.
- هل أدوات المونتيسوري وأنشطته لذوي الاحتياجات الخاصة فقط؟

الإجابة: لا!

بعد أن استخدمت د. «مونتيسوري» أنشطتها وفلسفتها مع الأطفال في مستشفى الأمراض العقلية، التي تحدثت عنها بالتفصيل سابقاً، كانت تريد أن تختبر تأثيرها على الأطفال ذوي النمو النمطي. جاءت الفرصة عندما خاطبها رجال أعمال الحي، وبدأت عملها في «بيت الطفل» مع أطفال الشوارع.

النتيجة كانت مبهرة في درجة تقدمهم واستيعابهم، واستعدادهم للتعلم، وإقبالهم على الأدوات. بعد هذه التجربة، وخلال رحلتها الحياتية الطويلة الثرية، دربت د. «مونتيسوري» المئات من الموجهات وافتتحت الكثير من المدارس في أوروبا وأمريكا وآسيا لتطبيق فلسفتها.

ماذا تفعلون إذا كان طفلكم من ذوي الاحتياجات الخاصة؟

تمتلى كتب تربية الأطفال وكتب إعداد الأمهات ومواقع الأمومة والطفولة بجداول ترسم خطوط نمو الطفل جسدياً وحركياً وعقلياً واجتماعياً ولغوياً، وفي أغلب الجداول يضع الطبيب المؤلف مساحة للاختلافات الفردية غير المقلقة، مثلاً، في خطوة كبيرة مثل السير، نجد الكتاب يقول إن أغلب الأطفال يمكنهم المشي في عمر 12 شهراً، وهناك المبكرون في عمر 10 أشهر، وهناك الحذرون في عمر 15 شهراً.

بعض الحالات الخاصة تكتشف منذ الميلاد، سواء كانت حالات جينية مثل متلازمة داون، أو درجات من السكتة الدماغية، أو تلفاً في أعصاب معينة، أو غيرها من الحالات التي تكتشف مبكراً. هناك حالات أخرى لا تكتشف قبل عام أو عام ونصف من عمر الطفل مثل أعراض طيف التوحد، وهناك حالات أخرى تكتشف في عمر دخول الحضانه، وحالات أخرى تكتشف عند بدء التعليم الإلزامي في عمر ست أو سبع سنوات. في جميع هذه الحالات يصدّم الأهل وتبدأ المعاناة في صمت!

في البداية يمر الجميع بحالة من الإنكار! لا يمكن أن يكون طفلي «أنا» معاقاً أو متأخراً أو مختلفاً! ماذا تفعل الأم والأب بأحلامها وأمنياتها وتخيلاتهما عن طفلها؟ تواجه الأم والأب أحلامها المجهضة بالإنكار - قد يستمر هذا الإنكار فترة وجيزة وقد يستمر إلى الأبد! نجد مثلاً الأب الذي يصر على إدخال طفله المدرسة في مثل عمر أقرانه بغض النظر عن مدى استيعابه أو تفاعله.

يتبع الإنكار حالة من القلق والتوتر بسبب الغضب! لا يجد هذا الغضب منفثاً أو متنفساً، ولا تجد الأم أو الأب شخصاً يلومونه ويقتصوا منه! هذا الغضب قد يتحول إلى اتهامات تتبادلها الأم والأب، أو مجرد نوبات من الانفعال والبكاء غير المسبب.

الخوف من المستقبل ومن الأقارب ومن الأعراب! الخوف من الكلمات والنظرات والخوف من المجتمع وأحكامه، يغرق الأهل في دوامات الخوف!

الذنب شعور لا يمكن الهروب منه بالغضب! الذنب وتأنيب الذات مشاعر يعرفها كل أم وأب رزقوا بطفل غير نمطي في ملامحه أو نموه أو تعليمه!

الاكتئاب! ليس هذا مرادفاً للحزن! هذا النوع من الاكتئاب يتسلل إلى النفس ويمتص قوتها وطاقتها وإيمانها، إنه القاتل الصامت الذي لا يلاحظ وجوده أحداً!

«أجلس على شاطئ مهجور على الحدود بين الحياة والموت لأراقب تقلبات قلبي. أرى صخور القاع وقد انحسر عنها الحب وتعرت مشاعر الاستياء والغضب والألم والرفض. أراني متحجرة متخشبة وقد جفت ينابيع الأمومة بداخلي. أنظر لطفلي فأتمنى أن يختفي، أو أن أختفي أنا! أنظر له وللعداوة التي بينه وبين الكلمات، يسمعها فيصعب عليه تذكرها،

يفهمها فيصعب عليه نطقها، ينطقها فيصعب عليه تفكيك أصواتها، يتعثر في قراءتها وكتابتها، يعكس مواضع حروفها، يرى أحرفاً غير موجودة، يتعثر، يتعثر، أهجم عليه صارخة غاضبة رافضة، تنحسر الأمومة، تتعري الصخور... يقول أحبك وكأنه يشعر بتراجع حبي... أنظر له وكأنني تعثرت على الحدود بين الواقع والخيال.

أراني أغرق كصخرة ضخمة وقعت من سماء الأمومة في محيط الحزن والذنب والندم. لا أقاوم. لا أصارع. أستسلم للغرق والاختناق على دموع تحرق حلقي. ينظر إليّ وقد تخطى ألم هجمتي الأخيرة عليه، يبتسم، فأنظر له في يأس. أعد نفسي ألا أنتهك طفولته مرة أخرى. أعتذر له. أعلم أنني لن أفي بوعدتي. أجلس على الشاطئ في انتظار المد والمدد. أراقب المياه المنحسرة تعود رويداً رويداً. تعود أمومتي وتفيض فتغطي صخوري التي يرتطم بها صغيري. أحتضنه وأشم رأسه ويديه. أقبل قدميه وأنظر بداخل زرقة عينيه، فأجدني وأجد حبه لي وتعلقه بي. يناديني محيط الحزن والذنب والندم كل ليلة حتى وإن لم أهجم على «آدم».